العالم ما بعد الجائحة: رؤية في التحديات الحضارية

دليلة بن كوسة*

أستاذة مساعدة ب (كلية الحقوق و العلوم السياسية)

جامعة امحمد بوقرة بومرداس– الجزائر

الملخص:

تسعى هذه الورقة إلى تسليط الضوء على جائحة كورونا وما تخلفه من تحديات في مستويات عالمية، إقليمية، دولية، ووطنية، وكذلك سياسية، اقتصادية، اجتماعية، ثقافية ودينية، وذلك من منظور حضاري للمجتمع العالمي الذي انتهج العولمة نظاما له، وفق حوكمة عالمية غابت فيها العدالة والمساواة والحقوق والحريات، فصارت حكرا على دول دون غيرها، دولا متقدمة تتحكم في السياسات العالمية ودولا متخلفة تطبق عليها تلك السياسات وبما يخدم الأقوى، والأمر نفسه في حالة الجوائح، رغم أن الجائحة لا تفرق بين متقدم ومتخلف غير أن الأثر والاستجابة يختلف من منطقة إلى أخرى، وهو الحال بالنسبة للعالم الإسلامي الذي يتوجب عليه استغلال اللحظة الراهنة لتحقيق انبعاثه الحضاري، بتنظيم فعله الحضاري تحقيقا لعالمية حضارته في عالم يفقد إنسانيته يوما بعد الآخر.

الكلمات الدالة:الجائحة؛ العولمة؛ الحوكمة العالمية؛ الفعل الحضاري؛ الانبعاث الحضاري.

LE MONDE POST-PANDÉMIQUE : UNE VISION DES DÉFIS CIVILISATIONNELS

DALILA BENKOUSSA

Résumé :

Cet article cherche à mettre en lumière la pandémie de Corona et ses défis à l'échelle mondiale, régionale, internationale et nationale, ainsi que sur les plans politique, économique, social, culturel et religieux, d'une perspective civilisée de la communauté mondiale dans laquelle la mondialisation a adopté un système propre, selon une gouvernance mondiale où la justice, l'égalité, les droits et les

DL.BEN@HOTMAİL.COM: *

libertés étaient absents. Ces valeurs sont devenues un monopole de certains pays au détriment d'autres, les pays avancés contrôlant les politiques mondiales tandis que les pays arriérés subissent ces politiques d'une manière qui sert les plus forts. C'est le cas du monde islamique, qui doit saisir le moment présent pour réaliser sa renaissance civilisationnelle, en organisant son action civilisée pour atteindre l'universalité de sa civilisation dans un monde qui perd son humanité jour après jour.

Mots clés : pandémie; mondialisation; gouvernance mondiale; action civilisée; renaissance civilisationnelle

THE POST-PANDEMIC WORLD: A VISION OF CIVILIZATIONAL .CHALLENGES

DALILA BENKOUSSA

Summary:

This paper seeks to highlight the Corona pandemic and its challenges at global, regional, international, and national levels, as well as political, economic, social, cultural and religious, from a civilized perspective of the global community in which globalization has adopted a system for it, according to global governance in which it was absent. Justice, equality, rights, and freedoms became a monopoly on countries and not others, advanced countries that control global policies and backward countries to which those policies are applied in a way that serves the strongest. This is the matter for the Islamic world, which must use the present moment to achieve its civilizational resurgence, by organizing its civilized action to achieve the universality of its civilization in a world that loses its humanity day after day.

Key Words: pandemic; globalization; world gouvernance; civilized act; the civilizational emission

مقدمة:

قطعت البشرية أشواطا عديدة نحو تحقيق تقدمها متجاوزة في ذلك كل ما يعترض طريقها من عقبات، ساعية للوصول إلى أقصى درجات التقدم مسوقة لشتى المنتجات الحضارية بمحاسنها

ومساوئها، ولطالما اعترضت الأوبئة والجوائح طريقها فأخذت بها إلى الخوض في منعرجات لم تكن لتخوضها، أو دفعت بها لسلوك طرق لم تكن لتسلكها من قبل، فمصائب البشرية الكبرى كانت عاملا أساسيا في أخذ الدروس وإعادة الحسابات، وتصحيح المسلمات وابتكار نظريات جديدة، حتى وصل الإنسان إلى ما وصل إليه اليوم من ازدهار، فلطالما حكى التاريخ عن جوائح ألمت بحضارات فقضت عليها، كما كانت سببا في قيام حضارات أخرى، وعلى الرغم مما حققته من تقدم علمي مس جميع مناحي الحياة بقت بشرية مطلع القرن الواحد والعشرين منذهلة أما تفشي فيروس كورونا المستجد، الذي أشارت بعض الدراسات إلى احتمال تفشيه مع الجهل بمدى خطورته وتأثيراته، فكان هذا الفيروس بمثابة المتغير الذي قلب كل شيء رأسا على عقب، وعلى مستوى الفرد والمجتمعات والدول، فشَلَّ الحياة اليومية الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية، الثقافية وحتى الروحية الدينية، فلا تجمعات ولا زيارات أسرية، ولا مصانع ولا إدارات خدماتية، ولا تظاهرات ترفيهية، ولم تسلم من ذلك حتى الأعياد والعبادات الجماعية، وكذلك مراسم الجنازات والدفن كانت غائبة، فانكفأ الجميع على ذاته فرادى وجماعات ودول، غير أن الأكيد من كل تجربة إنسانية الخبرة التي تكتسبها منها، فكورونا على ضآلة شأنه صار الدرس الأعظم للأمم والتي ستحاول التكيف مع هذا المستجد المنبوذ، معيدة حساباتها بما يضمن لها مراكزها الحضارية على مستوى السلم الحضاري العالمي، وعليه يتطرق هذا المقال لمعالجة الإشكالية التالية:

ماهي أبرز التحديات الحضارية التي سيفرضها مشهد عالم ما بعد الجائحة خاصة على الأمة الإسلامية؟

تهيمن الحضارة الغربية على قمة السلم الحضاري العالمي لعدة قرون، وهي في كل منعرج من منعرجات التاريخ تخلق مبررات وجودها، متكيفة وبكل مرونة مع مستجدات العصر الذي تشرف على صناعة أدواته الفكرية، المادية، وحتى النفسية، غير أن سنة الخلق تفرض تدافع الأمم وتداولها على هذه القمة، فلا حضارة دائمة إلى الأبد، وهو ما يقره تاريخ الحضارات وما تفترضه النظريات الحضارية، حيث أن لكل حضارة دورتها التي تنتهي بها إلى حلول حضارة أخرى محلها، ويكون الانحطاط شاهدا على انكفائها أو زوالها، وبالنظر إلى الحضارة المهيمنة اليوم تشوبها العديد من الأمراض التي تنذر بإثمار بذور فنائها وإن لم يكن على المدى غير المنظور، غير أن أزمة الجائحة أدت ببعض المفكرين إلى الخوض في الحديث عن استخلاف الصين للولايات

المتحدة الأمريكية على سدة الحكم العالمي، ومنه انتقال محور الحضارة من الغرب إلى الشرق الأقصى، ومن ثم يمكن الافتراض أنه كلما زادت التحديات الحضارية كلما أدى ذلك بالأمم إلى التدافع للتداول على السلم الحضاري العالمي، وهو ما يحتم على الأمة الإسلامية في ظل هذا التدافع أن تكون فاعلا حضاريا أو مفعولا به.

وسيتم الإجابة على الإشكالية واختبار الفرضية من خلال النقاط التالية:

1- العالم تحت وطأة الجائحة؛

2- الاستخدام السياسي الغربي للجائحة؛

3- ضرورة استجابة الأمة الإسلامية للتحديات الحضارية.

وكما هو مبين من النقاط أعلاه تهدف هذه الدراسة إلى محاولة تحديد طبيعة الجائحة وفق الروايات السياسية التي تم تداولها على مستويات عالمية، بما يخدم أجندة حضارية تضمن للغرب تكيفه مع المستجدات العالمية، واستغلال الوضع العالمي لتكييف الشعوب مع توجهات تخدم متطلبات الحوكمة العالمية، وبما أن العالم الإسلامي جزء لا يتجزأ من العالم ككل، غائب عن التدافع الحضاري العالمي الحالي، حاضر في تلك الأجندات الاستغلالية، كان لزاما تسليط الضوء على كيفية استغلال الظرف العالمي والاستجابة للتحديات الحضارية التي تفرضها الجائحة وبالاستثمار في الفرص الحضارية التي يمنحها الوضع الراهن.

I. العالم تحت وطأة الجائحة:

نهضت إيطاليا في الثامن من شهر مارس من السنة الجارية على وقع قرار الإغلاق التام، وفرض الحجر المنزلي بسبب وصول حالات المصابين بفيروس كورونا إلى قرابة العشرة آلاف مصاب، فقبلها في العشرين من شهر فيفري استقبلت إحدى مستشفيات مقاطعة لمبارديا شمال إيطاليا أول مصاب إيطالي بالفيروس[1]، ولم يكن الجميع يظن أنه في غضون ساعات ستمتلئ المستشفيات بالمصابين، لتكون نقطة بداية بؤرة الوباء في أوربا، الذي كان قبل ذلك قد تسبب في إغلاق السلطات الصينية لمدينة ووهان في الثالث والعشرين من شهر جانفي بعد إعلانها عن وجود مرض بها، وقد سبقها في ذلك الطبيب الصيني الدكتور لي وين ليانغ في نهاية السنة المنصرمة،

الذي أنذر بتفشي فيروس يشبه فيروس سارس في المدينة[2]، فحذر بكل ما أوتي من وسيلة من انتشار وباء قد يؤدي تفشيه إلى الهلاك، فما كان من السلطات الصينية إلا متابعته واتهامه بنشر الإشاعات والإرهاب، فكُتم صوته وأصيب بالعدوى فراح ضحية الوباء.

كان الدكتور لي بمثابة صفارة الإنذار التي تعذر على الصين وعلى العالم بأكمله سماعها، فقد انشغلت بعض الشعوب بشن حملات تنمرها ضد الصينيين بادعاء أن مرد مرضهم أكلهم للخفافيش والأفاع، بدعوى أن العدوى بدأت من سوق في ووهان، والبعض الآخر كان منهمكا في منعرجات حياته باحثا عن سبل سد الرمق، أو رد العدوان أو في البحث عن مخارج الإفلات من السيطرة أو التقتيل، فلكل كان انشغاله، فحتى الدول هي الأخرى كانت منهمكة كل حسب أولوياتها واستراتيجياتها، فقائدة العالم الولايات المتحدة الأمريكية كانت منغمسة في الترويج لخطة السلام، والتي لم تلق ترحيبا لدى بعض قادة المستوطنين على غرار مجموعة قادة "يشع" الذي أعرب زعيم مجلسها عن قلقهم ورفضهم لخطة تتضمن إقامة دولة فلسطينية تشكل خطرا على دولتهم[3]، على الرغم من أنها مبادرة تعمل على تعزيز قوة الكيان الصهيوني الغاصب، في قلب المنطقة العربية بمباركة أمريكية لما سمي بصفقة القرن، وعينها صوب إيران ويدها تتسلل إلى العراق وأفغانستان وسوريا، حارصة على بقائها في سدة الحكم العالمي بعيدا عن ملاحقة روسيا التي تحاول تأكيد انبعاثها من خلال نفوذها وتدخلاتها العسكرية وإدارتها للحرب بالوكالة في منطقة الشرق الأوسط[4]، أما أوربا فقد شردت متأملة في مستقبلها مستغرقة في حالة ذهول جراء انسحاب بريطانيا[5] من اتحادها التاريخي الذي كان ركيزة تحالفها لضمان قوتها ومرتبتها على المستويات الدولية، متسائلة حول رهان الحفاظ على خصوصياتها وقومياتها مقابل مستقبل بقائها ككيان عالمي قوي يجابه القوى الدولية، وحتى أستراليا هي الأخرى كانت تواجه غضب الطبيعة التي ألقت بنيرانها وبجفافها، فتحدتها بتقتيل عشرة آلاف من الإبل على مدار خمسة أيام توفيرا[6]، متزامنا ذلك مع تبكم منظمات حقوق الحيوان عبر العالم، وفي قبالتها إفريقيا التي يعقر الجوع صغارها قبل أن ينخر أجساد كبارها، فسوء التغذية في إفريقيا شكل سنة 2016 نسبة 20% من سكانها[7]، واليوم مع تفشي الوباء سيعاني حوالي 265 مليون شخص– أغلبهم في إفريقيا– في البلدان المنخفضة والمتوسطة الدخل من انعدام الأمن الغذائي الحاد بحلول نهاية عام 2020، ما لم تتخذ إجراءات عاجلة وذلك حسب تقديرات برنامج الأغذية العالمي نتيجة الآثار الاقتصادية التي سببها الفيروس[8].

وفي الضفة الأخرى من أمريكا اللاتينية لم يجد الاستقرار ملاذا له في دولها التي عاثت فيها الاضطرابات الاجتماعية والسياسية، فكانت دولها تنتظر سنة 2020 لإيجاد الحلول لمشاكل اقتصادية أضفت ظلالها الاجتماعية على شعوبها التي خرجت للشوارع محتجة[9]، وهي تترقب أحلام زوال الجدار العازل بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، باحثة في الهجرة إلى الشمال هربا من الفقر والمشاكل الأسرية عن غد أفضل.

أما العالم العربي الإسلامي فهو كذلك كان منغمسا في سبل الخروج من خندق التاريخ الذي توقف على أعتابه منذ عهد الموحدين، في حاضر تعبث فيه الفوضى والعنف والتوترات، وسط حراكات وثورات تاهت به عن سبل الخروج من خندقه والولوج في صناعة مستقبل الأمة الوسط الشاهدة على الأمم، فشتت الهموم الأمة فحاذت عن رسالتها الحضارية، حرب في سوريا واليمن وليبيا، حصار في إيران وقطر، ومجتمعات في مصر والسودان وغيرها يسوسها العسكر، وحراك لشهور في لبنان والجزائر، واضطراب استوطن في العراق فلم يغادر، وصمود في فلسطين مع عدو غاشم غادر، فأنى لها أن تتبصر طريقها وقد تشظت ذاتها بين الأصولية والتبعية، بين الفوضى والاستقرار، بين التطرف والانفتاح، وبين الأنا والآخر، وفي صراعات هوياتية مصطنعة تعمق أزماتها يوما بعد الآخر، فلم تلق لأحداث العالم اليومية بال، ذلك العالم الذي تُنبئ جميع خرائطه السياسية والاقتصادية عن انقسامه إلى كتلتين تشكلان عالمان مختلفان –إن لم يكن متضادان– عالم متقدم يتمركز جله في شمال الكرة الأرضية وعالم متخلف يشغل معظم جنوبها، وعلى الرغم من وفرة إمكانياته تشير ملاحظات المختصين في الشؤون الاقتصادية إلى أن المتقدم يزداد تقدما والمتخلف يزداد تخلفا[10]، فلكل واجباته نحو المحافظة على التقدم أو الخروج من التخلف.

كل العالم كان منهمكا في انشغالاته متلاهيا عن الفيروس الذي كان يسري مثلما تسري النار في الهشيم، فمن الصين إلى إيران وكوريا الجنوبية، وبعدها اليابان وإيطاليا وصولا إلى أمريكا ومنه إلى أغلب دول العالم، دون أن يطرق بابا، ودون أن يدري أو أن يراه أحد، ليقضي على أزيد من 293 ألف شخص، ويناهز عدد المصابين الأربعة ملايين مصاب[11]والقائمة مرشحة للارتفاع، وتتصدر الولايات المتحدة القائمة بعد أن شغلتها الصين وبعدها إيطاليا بضعة أيام، وتأتي روسيا حاليا في المرتبة الثانية وتعقبها إسبانيا[12]، وعلى الرغم من تقدم الدول وقوتها المؤسساتية والعسكرية فقد عجزت الجيوش بترساناتها ومخابراتها عن رصد هذا المتسلل الفتاك الذي شل عجلة الاقتصاد

بجل قطاعاته الزراعية، الصناعية، التجارية والسياحية، وهز التحالفات السياسية بين الدول، فانكفأت كل دولة على ذاتها وقوميتها وعم العالم سكون عام، وفي خضم كل ذلك طفت تساؤلات عديدة حول المجتمع الدولي واستمرارية النظام الدولي أو تجدده، في ظل تعدد الروايات السياسية بشأن الفيروس وحقيقة مصدره، وحصره في كونه أزمة صحية مما يحجب جميع المجالات التي ستتأثر على المدى الطويل بالرغم من أنه أخل بأبعاد الحياة كلها، فهي جزء لا يتجزأ عن بعضها البعض، فلا يجب النظر إليها إلا بصورة إجمالية.

لقد تراوحت التسميات بين وباء وجائحة وكارثة طبيعية، واختلفت معها التصريحات حول مصدر الجائحة إن كانت طبيعية أو مصنعة في مختبر، أم تم تسريبها أو تسربت بالخطأ[13]، أو كونها جند من جنود الله، وهي في جميع الحالات تؤدي إلى صدمة في الهياكل الاجتماعية القائمة، فهرع في أمريكا لشراء السلاح خوفا من تعدي الآخر، وصراع في المحلات بأروبا وأستراليا حول مناديل الحمام، وطوابير لأمتار في هولندا على أبواب المقاهي قبل ساعات على غلقها لشراء المخدرات، وتدافع على المواد الغذائية خوفا من الجوع في باقي الدول المصابة، وهي مشاهد لم تأت عبثا إنما فاقمت منها القنوات الإعلامية والمنصات التواصلية بما نشرته من معلومات بعضها غير صحيح، فمن الطبيعي حسب النظرة النفسية أنه في حالة الذعر يلجأ الإنسان لتوفير ما يمكنه من تلبية حاجياته الفيزيولوجية الأساسية التي تضمن له البقاء حيا، فيبحث عن وسائل المعادلة القاعدية للحياة وهي الإطعام من الجوع، والأمان من الخوف.

ولعل البحث عن حقيقة ما يجري في العالم اليوم يستدعي التفكير في مدى إمكانية التوقع به، فقد طُرح منذ التسعينات احتمالية وقوع هذا النوع من الأحداث عالية التأثير في العديد من المجلات، وفي سبتمبر 2019 نشر مجلس مراقبة التأهب العالمي (GPMB) التابع لمنظمة الصحة العالمية تقريرا عن الاستعداد لمثل هذه الأوبئة منوها إلى ضرورة الاستعداد للأسوأ، الذي تم تحديده آنذاك على أنه "مرض تنفسي قاتل سريع الانتشار"، مما يتوجب وجود قدر ولو ضئيل من حالة التأهب في إدارة المخاطر والكوارث غير أن جل الدول لم تكن مستعدة للوباء، فالتأهب شمل المجالات العسكرية حيث ولدت فكرته خلال الحرب العالمية الثانية، وطور أثناء الحرب الباردة في الولايات المتحدة، وقد كشفت جائحة كورونا ضرورة التدابير الهيكلية التي توحي بالحاجة إلى سياسات تهدف للحد من عوامل الضعف وعلى المستوى العالمي[14]، وهي ما يفتقر إليه العالم على الرغم من

خبرته السابقة حول الإنفلونزا الإسبانية التي كانت سنة 1918، والتي لم يحدَد مصدرها أو أسبابها إلى غاية الساعة، وغيرها من أنواع الفيروس التاجي، عرفت البشرية ثلاث منها في أقل من عشرين سنة (SARS-CoV سنة 2003، MERS-CoV سنة 2012، وحاليا SARS-CoV2 أو Covid-19)، وقد ينطبق الأمر كذلك على هذه الجائحة فتبقى أسبابها مجهولة والتاريخ كفيل بتفنيد الإجابة أو تأكيدها.

ومما سبق يمكن إدراج الفيروس على أنه متغير قليل الاحتمال عظيم التأثير فهو نموذج متوقع دون الاستعداد لمواجهته، قد يشكل نقطة تحول للاتجاه الأعظم للعالم[15]، وهو ما راحت إليه العديد من التصريحات وحتى الدراسات التي لوحت ببداية نظام عالمي جديد يعيد رسم خارطة العالم الحضارية.

II. الاستخدام السياسي الغربي للجائحة:

لقد بقت المفارقات الحضارية الراهنة بين الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب ماثلة، غير أن الفيروس لم يفرق بين عالم متقدم ومتخلف، فكان عدوا غير تقليديا على السواء، حرك الدول لشن حروبها ضده باستنفارها لجيوشها البيضاء، وهي في الوقت ذاته تتصارع جهرا وسرا على رئاسة العالم ذلك هو منطق الدول المتقدمة، أما المتخلفة فقد باشرت في محاولة منها لاحتواء الأزمة التي باتت تنم عن أزمات عدة، فبادرت الصين بالمسارعة للمساعدة وحذت روسيا حذوها علها تعزز مكانتها العالمية، في سباق شرس نحو ترأس سدة الحكم العالمي ومنه السلم الحضاري العالمي الذي احتكره الغرب منذ قرون.

وفي خضم الجهل بالفيروس وبطرق انتقاله وسبل علاجه، وفي ظل الفوضى التي أحدثها برز العديد من الخطابات ذات اتجاهات ثلاث وهي:

1. الخطاب الأول: كان وطنيا متنوعا ومختلفا مثل خطاب الرئيس الفرنسي الذي تناول الموضوع العسكري للتعبئة العامة، محييا لأفكار الحرب العالمية والوطن المهدد، كما أشار كذلك رئيس الوزراء الإيطالي إلى الحرب العالمية الثانية في محاولة منه لتمثيل التحدي الجماعي، والأمر نفسه في ألمانيا التي استحضرت كذلك الحرب العالمية الثانية وبمزيد من الحذر.

2. الخطاب الثاني: يحكي معارك سردية على نطاق دولي كان الرئيس الأمريكي رائدها، حيث أطلق على الفيروس اسم "الفيروس الصيني" أو "فيروس ووهان"، وردت الصين على ذلك بأن الولايات المتحدة استوردت أو صنعت الفايروس في ووهان، وهو ما خلق حربا دعائية باسم الوباء على الرغم من أن الصراع على النفوذ والحرب التجارية بين الطرفان سبقا الجائحة ومن المرجح أن يستمرا، فبالنسبة للبيت الأبيض لا بد من الحفاظ على الرواية الأمريكية التي تجعل من أمريكا الدولة العظمى ذات القوة الخارقة كما سماها المفكر والسياسي الفرنسي هيبر فدرين، وبمحاولة خلق عدو خارجي من أجل تجاوز حالة الاخفاق الداخلي الناجمة عن ركاكة في سياسة تطويق الجائحة التي عرت القصور في المرافق الصحية، وعجزها عن إيجاد دواء أو اكتشاف لقاح يقضي أو يقي من الفيروس في أمريكا خاصة وللدول المتقدمة عامة وللعالم أجمع، فلم تعد أمريكا منقذة العالم سوى في الصناعة السنيمائية لهوليود التي كرست إنتاجها لرسم صورة منقذة العالم من الدمار في زمن الحرب والسلم والأوبئة، أما بالنسبة إلى الصين فهي رواية عن نهضة أمة سلمية ببعدها الحضاري، يتجلى تطورها في طريق الحرير الجديد والذي افتتحته بالطريق الصحي غداة إرسال أول شحنة صينية من المعدات الطبية إلى إيطاليا التي لم يجبها حلفاؤها في الاتحاد الأوربي وهي تحت وطأة فتك الفيروس، فأعادت بذلك تواصل شبكات العالم المعولم بين شرقه وغربه، فاستفادت من تراجع الولايات المتحدة من خلال الترويج لنفسها كبطل جديد للعولمة[16]، فمن الطبيعي جدا أن يتم اتهامها بعدم الشفافية وتصدير الفيروس.

3. الخطاب الثالث: المضاد للعولمة حيث رأى أصحاب هذا الاتجاه أن الحالة التي يعيشها العالم اليوم هي ثاني أكبر أزمة للعولمة منذ عقد من الزمان، فالأولى كانت الأزمة المالية العالمية في 2008–2009، وهي إن دلت على شيء إنما تدل على أن المسار الحالي للتنمية الاجتماعية والاقتصادية غير مستدام، فالتنقل الشديد للفيروس ما هو إلا رمزا لعولمة ضارة، مما يفرض الحاجة الملحة لتحسين الحوكمة العالمية[17].

إن النشاط الصيني وتواصله عالميا من خلال المساعدات التي يقدمها للدول المتضررة من الجائحة ما هو إلا انبعاث من الشرق لإحياء عولمة متصدعة قطاعاتها، فبالنظر للصين على الرغم من أنها تمتاز بحضارة شرقية ذات ثقافة لها خصوصيتها إلا أنها اقتصاديا واجتماعيا، وطنيا وإقليميا ودوليا لا تشكل إلا جزء من النظام الشبكي المعولم، ففي قمة المنتدى الاقتصادي العالمي

بدافوس في يناير 2017، قال الرئيس الصيني شي جين بينغ أن "الاقتصاد العالمي هو المحيط الكبير الذي لا يمكنك الهروب منه"، والذي "تعلمت فيه الصين السباحة"، ودعا القادة السياسيين وقادة الشركات في العالم إلى التكيف مع العولمة وتوجيهها، وتخفيف آثارها السلبية، وتقديم فوائدها لجميع البلدان وجميع الدول[18]،وهو كما يبدو بمثابة تبني صريح للعولمة وعقيدتها، ومن ثم فللناظر للعالم المتقدم رغم اختلاف الثقافة والحضارة إلا أن الصين تنتمي للمحور الحضاري الغربي بتبنيها نظمه ومبادئه وأطره وأيديولوجياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ورغم اختلاف التاريخ الحضاري في الماضي بين أمريكا والصين، فالتاريخ الحضاري الراهن يبرز توحيد الأنساق المعيارية والقيمية التي تطبع العالم الممتد على محور واشنطن – موسكو كما سماه المفكر مالك بن نبي[19]، وهو اليوم يمتد إلى الصين فصار محور واشنطن – بكين، وفق كوننة قيمية مكرسة لعالم ما بعد الحداثة، ذو هندسة كونية لمجتمع عالمي تجمعه المصالح ووحدة المصير، رغم تضارب الرؤى التي لا بد من توحيدها عبر فتح المجال للفواعل غير الحكومية، فالنظام العالمي اليوم يعمل على تجديد بنائه المنطقي الوظيفي لتكريس الحوكمة العالمية، تأسيسا لاستمرارية هيمنة الحضارة الغربية، والتي لا تزال أمريكا مستحوذة على جل مؤسسات حكمها العالمي، وعلى الرغم من تعدد اختلالاته، وكما يرى الكثيرون فالعالم بحاجة إلى أمريكا لأداء مهمتها العظيمة بما يسمح لها إبعاد خطر التقهقر الذي يظهر في الأفق[20]، وهو ما يستدعي الحاجة إلى تحسين الحوكمة العالمية إن لم يكن تكييفها مع الجائحة ذات عظيم الأثر، وذلك ما بدى ماثلا في المنتدى الاقتصادي العالمي بدافوس الذي عقد في نهاية جانفي المنصرم والجائحة في ذروتها بالصين، بحضور الرئيس الأمريكي دونلد ترمب، والأمير تشارلز، والناشطة غريتا ثونبرغ، والراقصة المتحولة الصينية جين شينغ، وغيرهم في سبيل إرساء مبررات تجدد النظام العالمي وفق حوكمة عالمية تتلاءم وما فرضته الجائحة، وما تستدعيه الاستمرارية من استغلال لجميع الشبكات وعلى كل المستويات.

وكما هو مألوف فالآراء التي يسردها القادة والمنظمات وحركات الرأي من الدول الأقوى والأغنى هي التي تحظى دائما بالاهتمام، وتستجيب جميع الأنساق الشبكية طواعية في سبيل تحقيقها، مما يخولها القدرة على السيطرة والتي لا تتأتى إلا من خلال القدرة على رسم حدود الواقع، وعلى وضع حدود جدول الأعمال الاجتماعي للمجموعة الدولية، وهي سلطة يهيمن عليها أجهزة الإعلام

وشبكات الاتصال التي تقرر الأذواق والقيم التي تتفق مع المعايير الخاصة[21] التي تقتضيها الساعة، وهي بذلك تشرف على تقديم الذوق الجمالي والمبدأ الأخلاقي لتلك المجموعة بما يحدد اتجاه الحضارة[22]، ويعد الترفيه أحسن وسيلة في ذلك فلا لغة توحد العالم مثل لغة الموسيقى، لذلك شاركت منظمة الصحة العالمية وحركة المواطن العالمي في تنظيم حفل موسيقي رقمي وعالمي كبير يومي 18 و 19 أفريل جمع فنانين عالميين مثل الليدي غاغا، ألانيس موريست، بول مكارنتي، وستيفي وندر، بثته عمالقة الإنترنت مثل علي بابا، أمازون، فايسبوك واليوتيوب، تحت عنوان:" عالم واحد: معا في المنزل"، تبشيرا منهم بترانيم عولمة سعيدة أعيد ابتكارها في عالم غدى رقميا كالمنزل الواحد الذي يتجول فيه الجميع، ويطلع على خصوصياته دون حد أو ردع، وبطبيعة الحال لا تعكس تنوع الخبرات والثقافات غير أنها تجمع العالم على ضوء أمل كاذب، عاملة على تهيئة العقول الخائفة والقلوب الوجلة تحت وطئة الجائحة المُحْجِرَة، ببرمجة لاواعية تتوافق ومستلزمات التعرجات الراهنة ضمانا لاستمرارية حضارة متصدعة أخلاقيا وروحيا بزعامة أمريكية تقدم الأمركة في قوالب مجبِرَة للاستعمال.

إن أمريكا لم تتصدر العالم صدفة إنما باتخاذها لمسببات تاريخية فأزاحت غيرها من القوى في القارة العجوز، ونظرا لاحتوائها على موارد طبيعية وبشرية، وخروجها منتصرة من دون دمار بعد الحرب العالمية الثانية، وارثة تركة شبكات الإمبراطوريات السابقة، فورثت معها كذلك المشروع الاستعماري الممتد في جذوره التاريخية إلى الحضارة الهيلينية مرورا بالنزعة الفاوستية، وهي بذلك تمارس قطبيتها في النظام العالمي لأنها الوحيدة التي تسيطر على جل الشبكات الدولية، من خلال تمكنها من معظم مؤسسات العولمة، بهيئاتها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية، فهي تسيطر على الحيوي من المواد الخام وعلى النظامين المصرفي والنقدي، كما تكسب النادر من الصناعات المتقدمة بما فيها الأسلحة الأشد فتكا وسرعة[23]، فهي الأكثر نفوذا في الجامعات البحثية فهناك 330 ألف طالب أمريكي خارج بلاده[24]، كما أنها الأذكى في بناء التحالفات العسكرية والتجارية والاستراتيجية، والأقوى دعائيا في مسائل حقوق الإنسان ونشر الديمقراطية وتطبيق القانون، كما أنها الأكثر إبداعا في الإنتاج الفني وبالتالي السيطرة على شبكات الإعلام والتواصل الاجتماعي.[25]

وعلى الرغم من تراجعها على مستويات عدة وبروز التشققات في عقر دارها إلا أنها لا تزال تسيطر على خيوط النظام الشبكي المعولم، فبروز الصين كمنافس دولي على القمة له مسبباته المادية أكثر من الحضارية، فعلى الرغم من محاسن الثورة الثقافية الصينية في منتصف القرن الماضي، إلا أنها تبرز اليوم بناء على محددات إحصائية تمثلت في ارتفاع الناتج المحلي الإجمالي، وبناء الثروة من البيع والاستثمار في الغرب وغيره، فهو صعود صيني تزامن مع هبوط أمريكي، ونظرا لتخلي أمريكا عن نموذج دولة الرفاهية[26]لسلوكها دورا عولميا سيطرت فيه قوى رأسمالية اتخذت من صراع الحضارات عقيدة لها، وهو الأمر نفسه الذي تحمله الصين لمحيطها الحيوي مع دول الجوار، فمن يترأس السلم العالمي ويظفر بقطبيته يكون حتما قد سيطر على جل الشبكات العالمية وخيوطها الظاهرة والخفية، المحلية، الوطنية والعابرة للقومية، فالبارز أن محور واشنطن – بكين يرسم على خريطته السيطرة الذريعة لعالم الأشياء، والذي يحرك صوبه عالم الأشخاص ليرمي به في وثنية عمياء طبعتها نزعة التملك التطبعي ذو الدافع الشهوي للحصول على الأشياء والتعلق بها، وهو ما يتنافى مع الفطرة في الطبيعة البشرية[27]، فضاع جوهر الإنسان في سبيل تملك مظهره، أُقحمت جراءه الإنسانية في أزمة حضارية عميقة أضفت ضلالها الأخلاقية والروحية، في مجتمع غربي رقمي يؤمن بحقيقة الكونيات ويعامل الناس فيها على أساس قواعد مرسومة يرديهم شبيهين بقطعان الغنم[28]، فرغم التقدم والتطور العلمي أثبتت الجائحة أن ما سماه فرنسيس فوكوياما بنهاية التاريخ ما هو إلا مرحلة من التطور البشري عبر التاريخ يحوي تقدما لا يزال فيه الإنسان جاهلا بالإنسان.

III. ضرورة استجابة الأمة الإسلامية للتحديات الحضارية:

عرف العالم تحولات كثيرة غداة الحرب العالمية الثانية مست في بدايتها التوزيع العالمي للقوة، تبعه تغير في النظام الدولي من ثنائية قطبية إلى أحادية قطبية أمريكية، ذات تفوق إستراتيجي شامل، بتوجه هيمني لم يشهده العالم منذ عهد السلم الروماني في العصور الوسطى، هيمنة سعت لتكريسها الحركيات الهادفة لبناء مرجعيات قيمية منمطة، وذات صفة كونية تحت مسمى العولمة الليبرالية الجديدة، القائمة على خلق عمليات وحركيات منتجة لتغيرات شاملة ومتوافقة مع الإرث القيمي للحضارة الغربية، على افتراض المنطق التفاعلي بين البيئات الداخلية الخاصة بالدول (تاريخيا، ثقافيا، دينيا، حضاريا،...)، وبين التوجهات المنمذجة للعولمة، ولا يتأتى هذا إلا من

خلال انتهاج كوننة قيمية بتطوير الأنساق المعيارية والقيمية التي يجب أو يمكن أن تطبع العالم وتحكم باسمه، متمركزة في ذلك حول الإنسان – الفرد – المواطن، على أن تكون هذه القيم غير معرفة بجنس أو بدين أو بعرق أو بلغة أو بثقافة، أو بتاريخ.[29]

على الرغم من أن هذه الكوننة القيمية لا تعكس مجالا جيو–حضاريا بعينه وتاريخه وأديانه، إلا أنها تعد في حد ذاتها إقصاء لخصوصية الآخر الثقافية، الدينية، الحضارية والتاريخية، ومحوا للهوية، وطمسا للميزات الأصيلة للشخصية القومية، وتعبر – صراحة وضمنا– عن الرغبة الملحة لقوى عالمية وغربية لغربنة العالم إن لم يكن أمركته، وفق فلسفة تجريدية تركيبية تجرد الإنسان من أفكاره ومعتقداته وقيمه، كي تركب منه إنسانا ذو نسخة هجينة عن النسخة الأمريكية المنمذجة، وفق نمط حياتي استهلاكي للمنتجات الغربية، وتَبَعِي للشخصيات المعولمة، وما هي إلا آلية وثنية تقحم الأفكار في صراع مع الأشياء والأشخاص الذين تُضفى عليهم هالة القدسية، وتطغى بهم إلى درجة التأليه، وهي في هذه الحال حصيلة مناورة سياسية[30]، تسعى لتحقيق غاياتها منعا لبزوغ حضارة جديدة غير غربية.

إن الحضارة الغربية الحالية التي تدين بعقيدة الهيمنة والصراع سقطت في هوس القضاء على كل بذرة ثقافية من شأنها أن تخلق حضارة جديدة، فبذرت بذور فنائها وسقتها بدماء الضعفاء، فأحالت الكرة الأرضية إلى مجرد مجتمع مخاطر متعدد التهديدات، المتنوعة مصادرها، المتشابكة نتائجها والمتسعة رقعة تأثيراتها، وتزداد درجة حدتها يوما بعد الآخر بازدياد الرغبة الدولية في امتلاك أسلحة الدمار الشامل، والتفنن في مستوياتها التدميرية بقدرات تخريبية تفوق ما تتحمله الكرة الأرضية[31]، وهو ما يفضي إلى استحالة الحياة على وجه الأرض، وبالتالي القضاء على الكرة الأرضية وعلى الحياة البشرية معا، فبقاء الإنسان من بقاء الكون الذي يختص بالاستمرارية والديمومة، باعتباره بيئة كلية وليس كدول، تحوي الإنسانية التي تمثل جزء من الكون الذي يحويها، فالتفاعل بين حاجات الذات الإنسانية وحاجات البيئة الكونية لابد أن تحكمها أخلقة وأنسة رشيدة تعطي الاعتبار للمشترك القيمي الإنساني.

إن اللحظة التاريخية الراهنة التي تميزها جائحة كورونا واكتساحها للعالم مكنت الكرة الأرضية من استعادة بعضا من عافيتها ولو لوقت قصير، فكأنها انعكاس من الكون الذي ضاق ذرعا

بمنتجات مدمرة للبيئة، في سبيل تحقيق حب الإنسان للكسب، والتطلع الدائم للرفاه الذي تحول مع الرأسمالية الشرسة إلى عمليات سلب تطال المستضعفين في الأرض، المرافق لقضائه على أساسيات شروط استمرار الحياة الطبيعية باسم الابتكارات العلمية المدمرة، وبمسميات عدة صار المواطن الإرث الذي كفله القانون للدولة، فمحاور الأمان الثلاثة المتمثلة في الدولة والاقتصاد والعلم تم عبرها تكريس الانحدار الشديد في الأمان الوجودي[32]، فخلق اللاأمان باسم الأمان مما يستدعي استوقاف البشرية حتى تعيد مساراتها الخاطئة، وهو ما يدفع بها إلى الخوض في تحديات تفرضها التحولات الحاصلة، فقد بينت الجائحة أن الدول القوية أصيبت كغيرها من الدول الضعيفة، فانهارت أنظمتها الصحية بفعل تأثير الفيروس وارتفاع حالات المصابين، رافقه نقص في الأطقم والمعدات الطبية، وقد كانت الأقليات الأجنبية العاملة في السلك الطبي بالدول الغربية في الصفوف الأولى لمواجهة الجائحة نظرا لاعتبارات عدة.

وإن من بين الآثار العظيمة التي أحدثتها الجائحة عجز في إيجاد عقار للفيروس رغم التقدم العلمي الذي يعرفه العالم، كما خلقت حالة شغور وسكون كوني أحدثا شللا في الحركية الاقتصادية ساوى بين العالمين المتقدم والمتخلف، كما أدى إلى خلق أزمة اقتصادية تنم عن عجز اقتصادي وبداية ركود عالمي، بدأ بانهيار أسعار النفط جراء توقف النشاطات الاقتصادية عبر العالم، رافقه رفع في معدلات إنتاج النفط من طرف السعودية التي اتبعت سياسة إغراق السوق، تمخض عن ذلك انهيار في البورصات العالمية، أدى إلى ارتفاع في نسب البطالة، نظرا لحالات الإفلاس التي طالت بعض الشركات من جهة، ومن جهة أخرى أدى توجه معظم شعوب العالم جراء الحجر المنزلي نحو العالم الافتراضي إلى غنى الشركات والمؤسسات المسيطرة على التقنيات وشبكات التواصل الاجتماعي، وهو تكريس للرقمنة في الحياة المجتمعية، والتي تدمج الشعوب –قصرا وطواعية– للاستخدام الأوسع للتكنولوجيا في الحياة اليومية من تعلم عن بعد، تسوق شبكي، استخدام العملة الرقمية، الشريحة الالكترونية وغيرها، فقد صار العالم الافتراضي واقعا بديلا عن العالم الواقعي– الحقيقي، بما يصل مقطوعا ويقطع موصولا، وبما يعمق التنظيم الشبكي على المستوى العالمي، كما راح البعض في تأمل رهيب في حقائقه الوجودية والإيمانية بعدما عاث الفراغ الروحي فسادا في حياة خرجت فيها الإنسانية عن فطرتها.

ومن الآثار السياسية البادية على المستويات الدولية جنوح إدارة ترامب إلى تغليب المقتضيات الاقتصادية على التهديدات الأمنية، فبادرت بسحب قواتها من الشرق الأوسط، فقد فرضت الجائحة نفسها على المشهد السياسي الأفغاني، فعجلت بتفعيل بنود الاتفاقية الأخيرة بين الحكومة الأفغانية التي تنقسم على نفسها، وبين طالبان التي أثبتت قدرتها على البقاء والتمدد، وتزداد سيطرتها بحملتها للقضاء على الفيروس[33]، يرافقه انسحاب القوى العسكرية في المنطقة، تلك القوى التي أنهكت الخزينة الأمريكية في حربها ضد طالبان بتكلفة اقتصادية للحرب في أفغانستان وحدها قاربت الترليون دولار[34]، وها هي اليوم الإدارة الأمريكية تحت وطأة الجائحة تجنح للسلم، بانتهاج رؤية ذاتية انطلاقا من ميكانيزم رأسمالي في التدبير القيادي، وفق حسابات الربح والخسارة[35]، فتستغل بدورها العداء بين طالبان وداعش، فيصير عدو العدو صديقا، بعد أن كان عدوا وفقا للحسابات الاستراتيجية في المنطقة.

وتتواصل الهجمات في ليبيا مخلفة مزيدا من الضحايا يوما بعد الآخر، وتتعالى الأصوات من اليمن منذرة بانهيار النظام الصحي وبحلول كارثة إنسانية تعددت فيها الأوبئة من كورونا وطاعون وكوليرا..، وتتجه الحكومة اللبنانية تحت ضغط الجائحة والشارع صوب الاستدانة الخارجية علها تغطي بعضا من عجزها، ويغلب الرئيس المصري الخطر الاقتصادي على الخطر الكوروني، فيستجيب الشارع بمواصلة نشاطاته اليومية ضاربا بالتعليمات الصحية الوقائية عرض الحائط، وتبقى فلسطين تكابد وحدها عناء تعدد الأعداء من ظاهر وخفي، مع وصول للجائحة رافقه إحياء للسنة الثانية والسبعين للنكبة، في ظل التقتيل، التجويع والتضييق المستمر والمستديم من الكيان الصهيوني الغاصب، رافقه عمليات شيطنة الشعب الفلسطيني في رحلة شتاته الحقيقية التي توازت وعمليات تقديس الشعب الغاصب في رحلة اغتصابه للأرض العربية، تصوير أشرفت عليه الدراما التدميرية وبأصوات عربية خليجية تدعيما لها لتحالفات استراتيجية تحت مسمى "صفقة القرن".

وكثيرا ما جمعت الصفقات الاستراتيجية بين قوى مهيمنة مركزية وأخرى تابعة، غير أن الوقع المفاجئ الذي أحدثه الفيروس وهو وقوف الدول مشلولة أمام تفشي الوباء، فرغم قوة بعضها لم يكن لها حول ولا قوة في ردئه، وهو ما يؤدي حتما إلى تغير واضح في المفاهيم والمسلمات، وعلى رأسها مفهوم القوة، فمن الثروة والسلاح كمصدر لها إلى مجال العلم والبحث العلمي والتنظيم وتسيير الشؤون العامة كمحاور أساسية للقوة، وهي بذلك ستشهد تحولا في بنائها المضاميني ذاته،

فالجوانب الحياتية للإنسان لا تقتصر على الحروب فقط إنما تحديات الحياة تفترض وجود وعي بالحلول العلمية–العملية للمحافظة عليها خاصة، وعلى الكون عامة، وهو ما يمثل تحدي البقاء الذي يكفله من يقدم البديل الحضاري.

إن الأمة الإسلامية اليوم التي تتكبد كيات انحطاطها الحضاري، واستغلالها من الآخر، وحتى تضمن بقاءها لا بد أن تُفعِّل حضورها على كافة المستويات، بدءا من المستوى المحلي نهاية بالمستوى الكوني، وفي جميع المجالات، وهذا أمر لا يتم إن لم يتحقق انبعاثها الحضاري، وهو ما يرغمها على تحدي النهوض لأمة برمجت على قابليات عديدة تمركزت حول القابلية للاستعمار منذ زمن بعيد، حتى فعل بها ابناؤها ما لم يفعله عدوها بها، والنهوض يستوجب رفع الأمة بمستواها إلى مستوى التحديات الحضارية الكونية التي يفرضها الوضع القائم، في إطار دور المسلم في إنقاذ نفسه وإنقاذ الآخرين وفق شروط الاقتناع والإقناع[36]، ورسالته العالمية التي تحيل من أمته أمة شاهدة على الأمم، فالشهادة تشترط الحضور، وتحدي الحضور لا يتأتى إن لم يكن هناك تفاعل للأمة مع الأحداث التاريخية التي تمس البشرية، بل ويُفترض أن تكون كذلك صانعة للتاريخ، فرغم التطور الاقتصادي والنمو الذي عرفته البشرية في ظل الحضارة الغربية، إلا أنها تحوي تخلفا نفسيا وأخلاقيا وحالات عجز واضحة، مثلتها الفردانية الغربية المفرطة في الأنانية المحتدمة بفعل فقدان التضامن مع الاخر[37]، وبما أن العالم اليوم يشهد لحظات إفلاس نموذج الحضارة الغربية التي تفقد يوما بعد الآخر إنسانيتها فتحيل الإنسان إما وحشا مفترسا ضاريا، أو حيوانا تائها في المتاهات[38]، وعجزها عن تقديم الحلول التي تحمي حياة البشر، وبما أن الطبيعة لا تقبل الفراغ، فذلك يستوجب تقديم البديل الحضاري لإنسانية تاهت في طرقات المادية المحضة فأقحمتها في أزمة أخلاقية – روحية، ففقدت توازنها بافتقادها للجانب الروحي، الذي يعد رهانا سلطويا لإعادة الإنسانية لتوازنها الطبيعي وفطرتها التي فطرت عليها، وهو ما يؤدي إلى تحد آخر ويتمثل في إعادة سلم القيم لحالته المتوازنة بعد أن قلبته المادية الغربية، وذلك لا يكون إلا عبر تقديم المشروع الحضاري الإسلامي كبديل حضاري عقلاني مُؤَنسِن ورشيد مساهم للمشاريع الحضارية الأخرى للأمم، وذلك لن يتم إن لم يُنتهج الفعل الحضاري المؤسس لشروط نهضة حضارية تبعث بالمسلمين إلى مستوى عالمية مشروعهم وطموحهم.

إن عالمية المشروع الحضاري الإسلامي باعتباره مشروعا أخلاقيا ونموذجا تشاركيا إنسانيا بديلا عن العولمة الأمريكية، يقدم مشروعا متكاملا وبرامج حياتية تربوية شاملة لمناحي الحياة الإنسانية، توافق بين المرتكزات العلمية –العملية، والمتطلبات الأخلاقية– الجمالية، وتوازن بين الجوانب المادية – الروحية، وفق تفعيل القيم الإنسانية المستمدة من الثقافة الدينية، فالإسلام الذي عُرف في القرآن العظيم في قوله تعالى:﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ (1) فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (4) ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ (7) ﴾ (سورة الماعون، الآيات: 1–7)، قد ساوى الله عز وجل فيه بين الرفق باليتيم، وإطعام المسكين، وإتيان الصدقات، فوضعهم في نفس مستوى الصلاة التي هي عماد صلة الإنسان بربه، وبين العدالة والرفق التي هي أساس صلة الإنسان بالإنسان، ومن ثم فالعلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الاجتماعية، وتربط ما بين الإنسان وأخيه الإنسان في صورة القيمة الأخلاقية.[39]

إن الفعل الحضاري مرهون باقتحام العقبة كما ذكر الله تعالى في قوله:﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ

(11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12)﴾ (سورة البلد، الآيتان: 11–12)، كما هو مبين فإن الوثبة الحضارية التي هي اقتحام عقبة سلم التحضر الإنساني بتحقيق الصعود الحضاري واجتياز العوائق، وهي تشمل في أساسها العتق والتحرر من العبودية، وما أكثر أشكال العبودية اليوم والمتعلقة بعالم الأشياء والأشخاص، أو إطعام في يوم شدة، رحمة بيتيم قريب أو بمسكين محتاج، بما يحفظ صلة الأرحام ويخلق شبكة علاقات اجتماعية تضامنية أخوية قوية وصلبة، نابعة من القوة الروحية للإيمان الصادق، والإصرار والاستجابة المدروسة للأحداث الواردة والمستجدة، في ظل البعد الأخلاقي القائم على التراحم بين بني البشر، وبذلك يتحقق اليمن والرخاء والتفاؤل الحضاري.

مما ذكر أعلاه فإن أي هبة حضارية لا تتأتى إلا في إطار علاقات اجتماعية هي الأخرى، فالدين بناء لا يبنى إلا على هذه الأسس المعاملاتية التي تفسح المجال للتعارف بين الشعوب والمجتمعات البشرية، وتجعل من التقوى سلما للتكريم والارتقاء بينها، وذلك وفقا لقوله تعالى:﴿ يَا

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، الآية: 13).

وعليه فالبناء الحضاري لا بد أن تشتد لحمته بالأمة التي تتشكل من شبكة العلاقات الاجتماعية التي هي روح المجتمع، فهي تربط أفراده فيما بينهم، وتوجه نشاطاتهم المختلفة في اتجاه وظيفته العامة المنوطة برسالة المجتمع ذاتها[40]، وهي شبكة ازداد التحامها أثناء الجائحة ضمن الهبة التضامنية لمساعدة الآخرين، وعليه لا بد من الظفر بالمكسب الناجم عن الحالة النفسية التضامنية من أجل شد عضد المجتمعات العربية الإسلامية، وإعادة الأواصر الأخوية بين بني الأمة الإسلامية وفقا لرابطة الوحدة المقدسة، تجاوزا للانقسامات الطائفية، المذهبية، العرقية، والقبلية التي تعد معاول الهدم الحضاري، وهو ما يهيئ الأرضية لتطبيق ما يتم تصوره من حلول للمشكلات الاجتماعية، التي يعاني منها كل من العالمين المتخلف والمتقدم، من منطلق مبدأ الاعتماد على الذات، وبالاستثمار الاجتماعي في الطاقات الحيوية والامكانيات المادية، مع وجوب توخي مبدأ الاستفادة من التجارب الفاشلة علميا ونفسيا، بإيجاد قواسم مشتركة وبإزالة العقد والمسلمات الوهمية.[41]

قد يرى القارئ في بعث الحضارة الإسلامية وبنائها بالنظر لواقع حال الأمة ضربا من الخيال أو سردا للأحلام، فهي مهمة على قدر شقائها وصعوبتها للناظر، إلا أنها ليست مستحيلة، بل تقوم من المسلم مقام الواجب، فانحدار الحضارات هي حالة طبيعية في دورة الحضارة وفي حياة الأمم، غير أن دوام الحال من المحال فهذه الأمم تحكمها سنن الخلق التي تتمثل أهمها في: سنة التغيير، وسنة التدافع، وسنة التداول، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وهو حس لابد من موجوده لدى الأمة الإسلامية بضرورة تغيير واقعها المعاش بداية بتغيير ذاتها، خاصة بعد مضي عقود على اختراقها من طرف الغرب، وهو أمر لا يتم إلا في ظل القضاء على القابلية للاستعمار.

تبزغ نزعة الخروج من هذه القابلية في سيكولوجية الحشود التي اعتصمت الشوارع، واعتلت حناجرها في سبيل المطالبة بغد أفضل، فما هي إلا حركية تعبر عن التدافع في سبيل التغيير، وفي الوقت ذاته خلقت الجائحة إرادة إنسانية على مستوى الأمة، قد تصير حضارية إن تم استثمارها على الوجه الصحيح، وتفعيلها مع الإمكانيات الحضارية مع تزامن انشغال الغرب بما ألم

به، فهي فرصة للانفلات الحضاري من حيز التبعية للمركزية الحضارية الغربية، فالإرادة الحضارية هي السبب الذي يحول الإمكان الحضاري إلى إنجاز حضاري وفق شروط عملياتية تتضمن الإشراف والتنظيم والرقابة[42]، وبالتالي خلق حضارة وفقا للإرث الإنساني المشترك، والإرادة الحضارية لدى الأمة الإسلامية منبعها فاعلية الفكرة الدينية، ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كأنه مطبوع في النظام الكوني، ليعبر عن قانون خاص بالفكر.[43]

قد تتغير نظرة الكثيرين نحو العيش المشترك بما فيه من محاسن ومخاطر، ذلك أن ما يجمع الإنسانية أكثر مما يفرقها بالرغم من تعدد التباينات أثبتت الجائحة أن الإنسانية كلها في مركب واحد إما أن تنجو أو تهلك، فنزوع الإنسان للتطلع لما هو أفضل يرمي به صوب التدافع الحضاري، وهو نزعة طبيعية بشرية وضرورة حياتية نحو تحسين شروط الحياة، وبذلك يفتح المجال للتداول الحضاري للأمة التي تقدم البديل الأفضل للبشرية، إن تقديم الأمة الإسلامية لهذا البديل يضعها أمام أولويات لابد من اتخاذها في مسار اقتحام العقبة الحضارية، ففي بدايتها لا بد من إدراك تام بأهمية الدين والقيم الروحية السوية التي تبث الفاعلية في عالم الأفكار، كما أنه لا بد من تلحيم شبكة العلاقات الاجتماعية على المستويات المحلية والوطنية والقطرية والإسلامية على امتداد محور طنجة– جاكارتا، بداية من علاقة الإنسان بذاته، مرورا بالأسرة، نهاية للأمة، لخلق إنسان متوازن في أمة متكاملة، وهو مجال للبحث العلمي كلمة فيه لذلك فلا بد من فتح المجال للأدمغة والاستثمار في الرأسمال الفكري، وهو أمر لا يتأتى إلا بإعطاء الجامعة دورها الحضاري في أنسنة العلوم، وتوعية أفراد الأمة بخلق تنظيمات حيوية وفعالة، تشارك فيها تشكيلات المجتمع المدني بما يعبئ الأمة كافة للمهمة الحضارية المنوطة بها، وهو أمر يحقق العودة للذات والاعتزاز بها وتحقيق اكتفائها، بما يجعلها تقدم الإسلام كبديل حضاري عقلاني ورشيد في المستويات العالمية.

خاتمة:

كانت الأزمات والجوائح على مر العصور ماثلة في حياة البشرية مؤذنة ببزوغ عصر جديد، مولدة للهمم، باعثة لأجيال جديدة بأفكار جديدة، وبمسالك مغايرة، وهو الحال الذي يمكن أن تؤدي إليه هذه الجائحة، كما هو باد من انتشارها الواسع السريع، وحبسها للشعوب في منازلهم، وتكبيلها

لجل النشاطات الاجتماعية والاقتصادية، وقلبها للتحالفات والأجندات السياسية، واقحام متغيرات واختزال أخرى في المسلمات الفكرية، هي كلها وأكثر تعبر عن تحديات ترسم عالما مغايرا لما بعد الجائحة تسعى فيه أمريكا للبقاء في قمتها وبعظمتها، منتهجة لكافة الأساليب السلمية والعنفوية، في سبيل أمركة العالم باسم الحوكمة العالمية حتى لا تفلت خيوط شبكات النظام العالمي، الذي تزعزع فيه الاتحاد الأوربي بانسحاب بريطانيا، فكانت ضربة الفيروس موجعة بغلق الأبواب الأوربية في وجه روما التي كانت تئن من انهيار نظامها الصحي، وتنوح وهي تبحث أين تدفن ضحاياها، فصارت كل الطرق مغلقة على روما، على الرغم من ذلك فهي موقنة من أن الاتحاد هو الحلف التاريخي والمكسب الذي يضمن استمرارها ككتلة تاريخية قوية.

وفي عالم تتفاوت فيه القوى وتتصارع تسعى الصين كذلك ومن ورائها روسيا للوصول إلى قمة غدت حلما ممكن التحصيل في زمن الفيروس، وهو بعيد المنال عنهما إن لم يتمكنا من الظفر بخيوط شبكات النظام العالمي، الماثلة في مؤسسات العولمة العابرة للقوميات، والتي أقحمت نظرياتها ونظمها وتجمعاتها البشرية في أزمات تعدت جوانبها السياسية، الأمنية، الاقتصادية، والاجتماعية إلى أزمات أخلاقية، روحية، إيمانية، ووجودية وضعت الفطرة الإنسانية على حافة الهلاك، فأمام الموت امتثلت التساؤلات حول ما وراء الطبيعة، فالجائحة في تأثيراتها تجاوزت الاحتياجات المادية إلى التساؤلات الوجودية فأثارت النزعة الإيمانية الروحية، فبعثت معها المقتضيات الأخلاقية، التي ظنت المادية العلمانية أنها قضت عليها دون رجعة.

وبحكم التيه الذي يعيشه العالم الذي اختلت توازناته، ونظرا للوضع الذي يعيشه المسلم في عالم يكيل له العداء، ويوجه إليه أصابع الاتهام بالتخلف والتطرف والرجعية، ويحيك له الأفعال وردودها، توجب على الأمة الإسلامية تحمل مسؤوليتها الاستخلافية الحضارية تجاه الإنسانية، منقذة لنفسها ولغيرها من هلاك كوني محقق، ولا تتأتى هذه المهمة الجليلة إلا بوعي واقتناع وقدرة على التوعية والاقناع، وإدراك للإمكانيات الكامنة والخاملة، البشرية، المادية والمعنوية، وإلماما بالتحديات الراهنة والمستقبلية، التي تحتم عليها إما البقاء أو الاندثار في فضاء حضاري يوجب على من يخوض معركته أن يعد ما استطاع له من العدة العلمية والعملية والفنية، فتحدي البقاء يتطلب خوض الإنجاز الحضاري الذي هو مرهون بالوثبة والانبعاث الحضاريين ولا يتأتيان إلا

بنهضة تتوفر فيها الإرادة والإمكان الحضاريين، وبتقديم بديل عالمي يتجاوز تهديدات الممارسات الحضارية الراهنة، ويبعث التوازن في الإنسانية والطبيعة والكون من جديد.

وعلى قدر جلل المهام تكون الأمم العظام، وهو حديث يطول مقامه، ويتسع مجاله، ويتعدى لغيره من المجالات والتي تستدعى استنفار الرأسمال الفكري وتعبئة جموع الأمة واتخاذ كل وسيلة وقناة توعية في سبيل إعادة الإنسانية لجوهرها وفطرتها.

الهوامش والمراجع:

[1]WIKIPEDIA. COVID-19 PANDEMIC IN ITALY, 2020, https://en.wikipedia.org/wiki/COVID-19_pandemic_in_Italy

[2]الجزيرة، وباء كورونا.. عشر محطات رئيسية، 2020، تاريخ الاطلاع 11 فيفري 2020، مقال على الرابط: https://www.aljazeera.net/news/healthmedicine/2020/2/10

[3] Magid, Jacob. Settler leaders call on PM to oppose Trump plan, even at the cost of annexation". The Times of Israel. Retrieved January 29, 2020, Seen on: 30/01/2020,https://www.timesofisrael.com/settler-leaders-call-on-pm-to-oppose-trump-plan-even-at-the-cost-of-annexation/

[4]Marcin Styszynski, Proxy wars in the Middle East,February 2019, seen on: 16/01/2020 https://www.researchgate.net/publication/331088456_Dr_Marcin_Styszynski_Proxy_wars_in_the_Middle_East/link/5c652273a6fdccb608c1288a/download

[5]The Guardian, Brexit: MEPs ratify UK withdrawal agreement, SEEN ON: 29/01/2020, https://www.theguardian.com/politics/2020/jan/29/brexit-meps-to-vote-on-withdrawal-agreement-ahead-of-uk-departure

[6]Rafi Letzter, Staff Writer , Australian Hunters to Kill 10,000 Feral Camels from Helicopters Amid Worsening Drought. Seen on: 19/01/2020,https://www.livescience.com/australian-hunters-kill-camels-helicopters-drought-fire-season.html

[7] World hunger, AFRICA HUNGER AND POVERTY FACTS, 2018 ,Seen on: 16/02/2020, https://www.worldhunger.org/africa-hunger-poverty-facts-2018/

[8]برنامج الأغذية العالمي، فيروس كورونا المستجد (كوفيد – 19) سيضاعف عدد الأشخاص الذين يعانون من أزمات الغذاء ما لم تتخذ خطوات عاجلة للتصدي له، 2020، تاريخ الزيارة 23 أفريل 2020، مقال على الرابط:

https://ar.wfp.org/news/covid-19-will-double-number-people-facing-food-crises-unless-swift-action-taken

[9]Tom, Phillips, Latin America's tumultuous year turns expectations on their head, The Gardian, 30/12/2019, Seen on: 22/01/2020, https://www.theguardian.com/world/2019/dec/30/latin-america-tumultuous-year-2019.

[10]بن نبي، مالك.المسلم في عالم الاقتصاد. ط 13. دمشق: دار الفكر، 2018، ص 54.

[11] WORLD OMETERS.INFO, SEEN ON: 13/05/2020, HTTPS://WWW.WORLDOMETERS.INFO/CORONAVIRUS/#COUNTRIES

[12]Wikipedia,Template:COVID-19 pandemic data, Seen on: 11/05/2020, https://en.wikipedia.org/wiki/Template:COVID-19_pandemic_data

[13] Karoline Postel-Vinay, Diverse Political Narratives, Fed by Scientific Uncertainties, 2020, Seen on: 11/04/2020, https://www.sciencespo.fr/ceri/en/content/diverse-political-narratives-fed-scientific-uncertainties

[14] Sandrine, Revet, COVID-19 A Natural Disaster?, Seen on: 20/02/2020,https://www.sciencespo.fr/ceri/en/content/covid-19-natural-disaster-interview

[15] Bernice, Lee, Felix, Preston, Gemma, Green, Preparing for High-impact, Low-probability Events, Lessons from Eyjafjallajökull, A Chatham House Report (London: Chatham House (The Royal Institute of International Affairs), p3, January 2012, Seen on: 22/01/2020, https://www.chathamhouse.org/sites/default/files/public/Research/Energy,%20Environment%20and%20Development/r0112_highimpact.pdf

[16]Walden, Bello, Coronavirus and the Death of « Connectivity », Seen on: 23/03/2020, https://fpif.org/coronavirus-and-the-death-of-connectivity/

[17]Karoline Postel-Vinay,Op sit, Seen on: 11/04/2020.

[18]Walden, Bello,Op sit, Seen on: 23/03/2020,

[19]بن نبي، مالك.تأملات. دمشق: دار الفكر، 2002، ص 111.

[20]معلوف، أمين.اختلال العالم حضارتنا المتهافتة. ت: ميشال كرم، بيروت: دار الفرابي، 2009، ص 306.

[21]شيللر، هربرت.المتلاعبون بالعقول. ت: عبد السلام رضوان، الكويت: عالم المعرفة، 1999، ص ص 179-180.

[22]بن نبي، مالك.شروط النهضة. ت: عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر، 1986، ص 101.

[23]عبيدات، أحمد زهاء الدين، لماذا لن تخلف الصين ولا سواها أمريكا قريبا؟، 2020،تاريخ الزيارة 23 أفريل 2020، مقال على الرابط:

HTTPS://BLOGS.ALJAZEERA.NET/BLOGS/2020/4/12/%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B0%8%A7%D9%84%D9%86%D8%AA%D8%AE%D9%84%D9%81%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%8A%D9%86%D9%88%D9%84%D8%A7%D8%B3%D9%88%D8%A7%D9%87%D8%A7%D8%A3%D9%85%D8%B1%D9%8A%D9%83%D8%A7-%D9%82%D8%B1%D9%8A%D8%A8%D8%A7

[24]عبد الحي، وليد، مستقبل المشهد الدولي بعد الكورونا (كوفيد 19)، 2020،تاريخ الزيارة 02 ماي 2020،مقال على الرابط:
HTTPS://WWW.ALZAYTOUNA.NET/TAG/%D9%88%D9%84%D9%8A%D8%AF%D8%B9%D8%A8%D8%AFD8%A7%D9%84%D8%AD%D9%8A/#.XSKPLEQZA1S

[25]عبيدات، أحمد زهاء الدين.مرجع سبق ذكره.تاريخ الزيارة 23 أفريل 2020.

[26]عبيدات، أحمد زهاء الدين.نفس المرجع الآنف الذكر. تاريخ الزيارة 23 أفريل 2020.

[27]فروم، إريك.الإنسان بين الجوهر والمظهر. ت: سعد زهران، الكويت: عالم المعرفة، 1989، ص 77.

[28] كاريل، ألكسيس.الإنسان ذلك المجهول. ت: عادل شفيق، ددن، ص 207.

[29]أمحند برقوق.الكوننة القيمية وهندسة عالم ما بعد الحداثة.مجلة دراسات استراتيجية، الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، 2009، ص ص 75-76.

[30]بن نبي، مالك.مشكلة الأفكار في العلام الإسلامي. ت: بسام بركة، أحمد شعبو، بيروت: دار الفكر المعاصر، 2002، ص ص 94-95.

[31]أمحند، برقوق.مرجع سبق ذكره. ص 77.

[32]بيك، أولريش.مجتمع المخاطر العالمي: بحث عن الأمان المفقود. ت: علا عادل، هند إبراهيم، سنت حسن، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2013، ص 94.

[33]مصطفى، زهران، جائحة كورونا: فصل جديد في مشهد أمريكا وطالبان، تاريخ الزيارة 15 ماي 2020، مقال على الرابط:
HTTPS://ZATMASR.COM/%D8%AC%D8%A7%D8%A6%D8%AD%D8%A9D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7%D9%81%D8%B5%D9%84%D8%AC%D8%AF%D9%8A%D8%AF%D9%81%D9%8A%D9%85%D8%B4%D9%87%D8%AF%D8%AD%D8%B1%D8%A8-%D8%A3%D9%85%D8%B1%D9%8A/

[34]JEFF, MCCAUSLAND, U.S. SIGNS A PEACE DEAL WITH THE TALIBAN, BUT IS THE WAR IN AFGHANISTAN REALLY ENDING?, SEEN ON : 04/03/2020,
HTTPS://WWW.NBCNEWS.COM/TH□NK/OP□N□ON/U-S-S□GNS-PEACE-DEAL-TAL□BAN-WAR-AFGHAN□STAN-REALLY-END□NG-NCNA1147426,

[35]مصطفى، زهران، مرجع سبق ذكره، تاريخ الزيارة 15 ماي 2020.

[36]بن نبي، مالك.دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. الجزائر: دار الفكر، 1991، ص 48.

[37]بودريارد، جان، موران إدغار.عنف العالم، ت: عزيز توما. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، 2005، ص ص 82-83.

[38]بن نبي، مالك.دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن العشرين. مرجع سبق ذكره. ص 46.

[39] بن نبي، مالك.(1986)، ميلاد مجتمع، ت: عبد الصبور شهين، دمشق: دار الفكر، 1986، ص 56.

[40]بن نبي، مالك.نفس المرجع الآنف الذكر. ص 14.

[41]بن نبي، مالك.المسلم في عالم الاقتصاد. مرجع سبق ذكره، ص 76.

[42]بن نبي، مالك.نفس المرجع الآنف الذكر. ص 62.

[43]بن نبي، مالك.الظاهرة القرآنية. ت: عبد الصبور شاهين، ط4، دمشق: دار الفكر،2000، ص 300.